خاتمـــــــــــة

لعلنا بعد هذه الرحلة الطويلة بعض الشيء في أرجاء أصول التربية الإسلامية، نستطيع أن نؤكد تعاملنا تربويا مع الإسلام، عقيدة وشريعة انطلق من حقيقة أنه منهج فكرى وطريقة حياة، ومن ثم تكون وظيفة هذا المنهج الفكري وطريقة الحياة هذه أن تعيننا على بناء الشخصية المسلمة بصورة تجعل المسلم قادرا على القيام بمسئولية الاستخلاف على الأرض، تلك المسئولية التي تتطلب منه أن ترتفع لديه القدرة على التعامل بكفاءة واقتدار مع مشكلات الحياة، ولن تستطيع التربية الإسلامية التوفيق في استخدام هذا المنهج إلا إذا توافرت فيها تلك القيم والمقومات والأسس التي تمدها بصلاحية البناء والقدرة عليه.

من هنا يستطيع القارئ أن يلمس تفسيرا لإلحاحنا في مواضع كثيرة على البحث عن "العقلانية" في مختلف دروب مصادر التربية الإسلامية؛

ففي غيبة العقل، تم الغزو الأجنبي لنا، اقتصاديا وفكريا...

وفى غيبة العقل، جاءت جيوش احتلال تعربد وتقتل في عدد كبير من بلداننا...

وفى غيبة العقل، خيم التخلف الذي شل قدرات الإنسان...

وفى غيبة العقل، قرئ النص الديني بصورة تقيم جدارا بينه وبين الالتحام بحركة الحياة..

والعقل لا ينمو بمجرد "الامتلاء"، أي بمزيد من تحصيل المعارف الدينية والتربوية، وإنما الشرط الأساسي لنمو العقل على وجه العموم، والعقل التربوي على وجه الخصوص، الوعي الديني المنضبط بمقاصد الشرع، المُمكن من ممارسة حرية الفكر، وحرية الرأي.

خذ إنسانا منذ لحظة ميلاده، وسلسل قدميه ويديه بالقيود، حبالا غليظة أو حديدا، وكمم فاهه، إلا بضع لحظات يزدرد فيها الطعام، وأغرقه بما لذ وطاب من طعام، وأسكنه قصرا منيفا، وألبسه غالى الثياب وأفخرها...ثم انظر إليه بعد سنوات وسنوات، فلن تجد أمامك إلا من هو فئة يصف سبحانه وتعالى أصحابها بأنهم "كالأنعام"، بل هم أضل!

جانب آخر سلطنا عليه الضوء مرات عدة، ألا وهو الجانب المادي...

إن كثيرين يشيعون أن التفكير الديني "روحي" ويعنون بهذا نوعا من "الدروشة" التي تنأى بالإنسان عن مغالبة الحياة والنضال والكفاح والسعي في مناكبها. ألا ما أبعد هذا عن منهج التربية الإسلامية! إن القوة سلاح رئيسى من أسلحتها..القوة بمختلف مظاهرها وأشكالها. وإذا كنا نؤكد على القوة "الروحية" والقوة "المعنوية" والقوة "العقلية" وما إلى ذلك، فإننا – وعيا بالإسلام ورسالته – نؤكد أيضا على القوة المادية سواء بالثروة الاقتصادية، أو بالتنمية

الاجتماعية، أو بالرياضة البدنية، أو بالسعي وراء الرزق، أو بأسلحة القتال والحرب، والعديد من آيات القرآن الكريم وأحاديث رسوله r ، تبرهن على ذلك، وقد أشرنا إليها في مواطن عدة من فصول الكتاب...

إن هذا يشير إلى عدد من التبعات التي ينبغي أن تلقى على عاتق العاملين في التربية الإسلامية، سواء على مستوى البحث والدراسة، أو على مستوى التنفيذ والتطبيق:

١-أن المسلم المعاصر يعيش في عالم بلغت فيه سبل الاتصال ووسائل الإعلام من الكثرة والتنوع والسرعة بحيث يجد نفسه كل يوم، بل وكل ساعة، يواجه بخضم من الآراء والأفكار والنظريات والفلسفات التي تشغل الساحة التربوية، وخاصة وقد أصبح مثل هذا ينطلق من منطق جديد، يؤكد على "عولمة" الفكر...ولا يستطيع أن يوجه حياته بكفاءة واقتدار إلا بأن يحدد لنفسه موقفا من كل ما يتلقاه، ولن يمكنه أن يسمع لذلك الرأي الذي يسم كل ما هو وارد بأنه غزو ثقافي يجب أن يصم أذنيه عنه، فهو يكاد يعايش كل هذا وذاك، ولابد أن يواجه الموقف بما يهديه إليه إيمانه وعقله ومصلحة الأمة.

٢-إن المسلم المعاصر يعيش عالما يمكن أن نسميه بعالم الآمال التعليمية المتنامية، وكثيرا ما تقصر موارده عن تحقيقها، فأصبح الاتجاه الغالب هو أن يخطط لرسم وتحديد الآمال وحصر الموارد والإمكانات، وتحدد فترة زمنية وترتيب أولويات لتحقيق الأهداف بأقل تكلفة ممكنة وبأحسن كفاءة متاحة، مما أصبح معروفا بالتخطيط التعليمي الإستراتيجي، فما هو موقف المسلم من تلك الأفكار المتعلقة "بالقضاء والقدر"؟ وأن كل شئ مقدر ومكتوب ولا سبيل لأحد أن يغير ما هو مقدر له؟ إن المسلم المعاصر إذا فتش في كتابات بعض أسلاف أمتنا فسو يجد واحدا مثل ابن عطاء الله السكندري في كتاب له بعنوان (التنوير في إسقاط التدبير) يحذر دائما من أن يشغل المسلم نفسه بالغد، فضلا عما بعد الغد ويطالبه بأن يحصر همه في اللحظة الحاضرة لأن ما بعدها هو من مسئولية الله عز وجل، ولو فكرنا في اللحظة التالية فإنه يعتبر ذلك تعبيرا عن عدم الثقة بالله!!

إن المربى المسلم عندما يواجه بهذه القضية، ويتجه إلى القرآن الكريم، فسوف يلمس في قصة سيدنا يوسف صورة رائعة من صور التخطيط، عندما حكى فرعون مصر ليوسف حلما عن سبع بقرات عجاف يأكلن سبع بقرات سمان، فيفسر يوسف ذلك بأن مصر ستشهد في زمنه سبع سنوات تنعم فيها بالرخاء والازدهار، تعقبها سبع سنوات من القحط والفاقة، فجعل فرعون مصر يوسف مسئولا عن خزائن مصر، فأخذ يضبط ويوفر من الرخاء المتوافر مخزونا ضخما أفاد البلاد عندما جاءها سنوات قحط، وأنقذ الناس بالتالي من

مستقبل كان سيكون مخيفا، بحسن تدبيره، ولو شئنا استخدام مصطلحات العصر لقلنا بحسن تخطيطه، بل لقد اعتبر تخطيطه هذا آية من آيات إعجاز نبوته، مفروض أن نتأسى به.

٣-والمسلم المعاصر ينظر بفزع إلى ذلك الاستقطاب الآخذ في الازدياد في المجتمع العالمي بين الأغنياء والفقراء، ففي الوقت الذي يسمع فيه عن مجتمعات ينفق فيها أفراد كثيرون ملايين الدولارات على إطعام حيوانات خاصة في منازلهم، وبالتالي تتوافر لديهم الأموال والإمكانات التي توفر التعليم لكل مواطن، هناك مجتمعات أخرى يموت فيها ألوف من البشر لأنهم لا يجدون لقمة تسد رمقهم أو شربة ماء، فكيف لمثل هؤلاء أن يفكروا في تربية وتعليم؟. بل وفى داخل العالم الإسلامي نفسه، هناك من يقذفون بكميات ضخمة من فائض مأكولاتهم في صناديق القمامة، وهناك من يتضورون جوعا.

والمسلم عندما يفزع إلى عدد من مظان موروثه الفكري، يهوله أن يجد عددا غير قليل يمتدح الفقر ويذم الغنى!

هنا يكون مطلوبا من المفكر التربوي أن يتجه بالمسلم المعاصر إلى القرآن الكريم والسنة النبوية، إذ سيجد فيهما أن المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف، ولا شك أن الثروة صورة من صور القوة، وسوف يجد أن الله، وهو يعدد نعمه، ذكر منها (الغنى)، وأكد سبحانه وتعالى - بحكم علمه بطبيعة مخلوقه - أن الناس تحب المال حبا جما، وعندما يجئ ذم وهجوم على الثروة والمال، فإنما ينصب لا عليهما بالذات، وإنما على سوء توظيفهما والسفه والتصرف فيهما وحبسهما عن الجريان في المنافع العامة والخاصة، وهو لا شك سيعلم أن التمكين لدين الله في المجتمع المعاصر أمر يستلزم علما وتقنية، تعين على إقامة المصانع الجبارة والشركات العملاقة والإنتاج الوفير.

٤-والمسلم المعاصر يرى أن الشعوب إذا كانت سابقا تنقسم إلى شعوب قاهرة وشعوب مقهورة، فهي تنقسم اليوم إلى شعوب تعلم وشعوب لا تعلم. إن كل لحظة تمر على العالم تنفتح أمامه آفاق من المعرفة لا قبل له بها بحيث يكاد يصاب بتخمة معرفية لم يشهد لها التاريخ مثيلا. لكنه قد يقف حائرا أمام بعض كتابات علماء من سلف الأمة عندما يصنفون العلوم فلا يجد بينها العديد من الآفاق العلمية الحديثة، ويجد أن العلوم الدينية هي التي يجب أن تحتل المرتبة الأولى، أما العلوم الطبيعية والرياضية، فهي في مرتبة ثالثة حيث تسبقها مرتبة ثانية تحتلها علوم الأدب واللغة والتاريخ، أما العلوم التطبيقية والمجالات المهنية فيكاد لا يكون لها وجود واضح.

هنا يكون من واجب المفكر التربوي أن ينبه إلى أن لكل اتجاه سياقه الحضاري الذي يحتم هذا وذاك، ولا يذكر غيره، وليس معنى أن القدماء لم يذكروا هذا الذي استجد، عدم العناية به، فما اهتموا هم به في زمانهم لم يكن له وجود عند أسلافهم، لكنهم أعملوا عقولهم فيما استجد عليهم فظهرت علوم لم تكن موجودة.

وفضلا عن ذلك فإن استقراء القرآن الكريم والسنة النبوية – كما فصلنا من قبل – يؤكد على ضرورة النظر والتأمل والبحث والدرس لكل مظاهر الكون الإنساني منها وغير الإنساني، العضوي وغير العضوي..

٥- كذلك فإننا نستشعر الحاجة الجوهرية لأن نوفر قوى بحثية وتدريسية في التربية الإسلامية، يتوافر لديها أمران: الدراية بقدر مناسب من علوم الشرع، والمعرفة الجيدة بعدد من العلوم التربوية والنفسية، حيث أن الأزمة الحادة التي تواجهها التربية الإسلامية، هي أن الجمهرة الكبرى من العاملين فيها إما فئة حصل أصحابها الكثير من علوم الشرع، لكن زادهم في العلوم التربوية والنفسية لا يسد الرمق، وإما فئة حصل أصحابها الكثير من علوم التربية والنفس، لكن زادهم في علوم الشرع ربما يكون أقل مما نتصور، مع ما يترتب على أعمال هذه الفئة وتلك من سلبيات كثيرة تعانى منها التربية الإسلامية بالفعل إلا باستثناءات قليلة لا تشكل تيارا عاما واتجاها غالبا.

٦- وأخيرا فإن كليات إعداد المعلمين بأمس الحاجة إلى أن تضمن برامجها مساقا أو مقررا – على الأقل في التربية الإسلامية. بطبيعة الحال فإن الوضع الأمثل هو أن يتخلل التوجه الإسلامي مختلف علوم التربية والنفس، لكن، بما أن هذا أمر ربما يكون عسيرا تنفيذه في الوقت الآخر، فإن وجود مساق أو مقرر هو الحد الأدنى لوجوب أن يتسع إعداد المعلم لقدر من المعرفة التربوية المتخصصة، من زواياها الأصولية والتاريخية والفلسفية والاجتماعية.

إن الدارس في كليات الحقوق في كثير من بلداننا العربية والإسلامية يجد لزاما عليه أن يدرس الشريعة الإسلامية لجوهريتها في تقنين المعاملات بين الناس، وكذلك يدرس طلاب الفلسفة في كليات الآداب الفلسفة الإسلامية بفروعها المختلفة، وطلاب التاريخ يدرسون التاريخ الإسلامي، أفلا يكون واجبا قياسا على هذا أن يدرس طلاب التربية، تربية إسلامية حيث يعدون معلمين، سوف ينشئون أبناء الأمة الإسلامية؟